اللغات الاوربية . فهذا دليل ساطع على انّ بعض الحروف تُقحم في الالفاظ الاصلية او تزاد عليها لتحسين اللفظ وتقوية المعنى الى غايات اخرى لا يسعنا هنا بسطها

٨ وما يبقى لنا سوى بعض الفاظ النَّحتُ فيها ظاهر كالمَارْزد والخَنْقُرْ (وهو البَرَد اصلهُ حَبُّ قُرّ) والحَصَالْبان (حَصَا اللَّبان) والرَّسْمَال (رأس المال) والكَرْجَوز والكَرْكَوز والتَّرهنديّ والشَّمْخَطَب (وهو الكبش ذو القرون الشبيهة بشقّ الحطَب) غير انّ هذه الالفاظ قليلة واكثر استعمالها في اصطلاح الاطبّاء او التجّار ومنها ما أُخذ عن العامّة وكان الاصلُ فيها الاضافة

(النتيجة) يتنج عن الملاحظات السابقة انّ النحت في العربية كما في اخواتها من اللغات الشرقيّة محصورٌ في الفاظ قلائل اكثرُها اعلام او عبارات مختصرة لا يجوز بناء قاعدة مطّردة عليها . وليس هذا قصورًا في اللغة العربية لان اصل وضعها يشمئزّ من هذه الالفاظ المركّبة على انّها ليست في حاجة الى هذه التراكيب المنحوتة ولها من المزايا الحسنة ما عدّدهُ حضرة الكاتب الاديب البارع شكري افندي الالوسي في المقالة السابقة . امتعنا الله بعلوم الادباء امثاله وهو حسبنا ونعم الوكيل

زينب (الزبّاء) ملكة تدمر

للاب سبستيان رتزقال اليسوعي

(تابع لما قبل)

١٧

يظهر ممّا تقدّم انّ زينب لم تفتقر ليحسُن تنصُّرها الّا الى مرشد امين حسن السيرة ومستقيم المعتقد . ولكن قد فات حين ارشادٍ . فانهُ بينما كانت ملكة تدمر تتفرّغ للامور الدينيّة وتشتغل بالمسائل العلمية جعل قياصرة رومة يتجهّزون لمقاتلة من تملّكت على جميع اقاليمهم الشرقيّة واقامت في صحارى الشام دولةً مستقلّة تزري قوةً وفخرًا بسلطة الرومان

وقديم عزّهم. كيف لا وقد ارتكت زينب ان تنجز ما عزمت عليه منذ ابتداء امرها اي الاستيلاء على رومة وترقية ابنائها على سرير ملوكها

الّا ان الله تعالى جلّت حكمته لم يسمح بتحقيق آمالها فتغيّرت الاحوال في الغرب وملك على الرومان قيصرٌ جديد ذو بأس ومراس جرى بينهُ وبين صاحبة ترجمتنا امور خطيرة تشيب لها الرؤوس واصطلت حرب عوان افضت الى كسرة زينب وأسرها فهذا ما بقي علينا ذكرهُ

كان اسم القيصر المذكور لوكيوس اوريليانس بويع لهُ بالملك بعد موت كلوديوس الثاني سنة ٢٧٠. وكان رجلًا كامل الاصل من احدى قرى بلاد پانونية فنشأ في آداب الحرب يبيت بالمراكز العسكرية ويقطع اوقات الفراغ بملاهي القنص وترويض الجسد. ولما تبوّأ تخت السلطنة اظهر في كل معاملاته شدّة جنديّ شظف وخشونة رجل شرس فظّ الطباع. قال ڤوپيسكوس في ترجمة اوريليانوس (ف ٢١) يصف دربته في السياسة: « كان اوريليانوس طبيبًا ماهرًا الّا انهُ كان خرقًا في عملهِ يُقي قابسهُ على المريض ». وعلاوةً على ذلك كان اوريليانس وثنيًا متعصبًا لا يفرق قطّ بين تعزيز دينهِ ورفعة دولة الرومان. فلما فرغ من امر الخوارج في رومة لم يعتم ان جدّد اضطهاد النصارى. ثمّ وجّه افكارهُ الى الاقاليم الشرقية فصمّم على ان يسلب زينب صولجان ملكها

وكانت زينب وابناؤها في تدمر وتريبيڤوس في غالية يقرّون للقيصر الجديد بحق الرئاسة او بالاحرى يعتبرونهُ كبعض شركائهم في تدبير الممالك الرومانية كما تشهد على ذلك بعض النقود. بيد ان اوريليانس لم يكن ليرضى بادنى اشتراك في الملك فجاهر في مجلس الشيوخ انهُ زاحفٌ بجيوشهِ الى الاقطار الشرقية. وقبل خروجهِ من رومة تقدّم الى احد قوّادهِ يقال لهُ پروبوس (١ ان يتوجّه توًّا الى مصر فيطرد عنها التدمريين (في اوائل السنة ٢٧١) (٢. واما هو فأجّل تتميم قصده ريثما يردّ غزوات القوط على ضفّة الطونة (الدانوب)

وكانت زينب في تلك الغضون تسوس رعيتها العظيمة بالامن والسلام غير مكترثة لمقاصد الرومان. بيد ان التدمريين الوثنيين قد اصبحت قلوبهم في قلق واضطراب كأنّهم ينتظرون تقلّبات الدهر وتصاريفهُ. لان جماعة منهم حجّوا قبل ذلك بسنة الى أفقة من اعمال لبنان كي يستفتوا إلهة الجبليّين عمّا يصير اليهِ امرهم. وكان من عادة هولاء المشركين

(١ تولّى پروبوس هذا الملكَ على الرومان بعد اوريليانوس وتاسيتوس ٢) Vopisc. : *Probus*, 9

اذا ما استشاروا الزهرة ان يرموا في النبع المختص بها عطايا من ذهب وفضة وأنسجة ثمينة . وكانوا يزعمون انّ الهدايا ترسب في غور المياه اذا اصابت لدى الزهرة قبولاً وتطفو فوقها اذا رذلتها الزهرة ورفضتها . فيُخبر انّ ما قدّمهُ التدمريّون للإلهة وجدوهُ بعد سنةٍ لمّا عادوا الى الفسقية طافقاً على وجه الماء . فاستنتجوا من ذلك ان الدوائر لا تنشب ان تدور على مدينتهم (١ . ولا خفاء ان زينب لم تكن لتحفل بهذه الخرافات . الّا انها لم تقدر ان تسكّن خواطر الوثنيين من رعاياها

وفي واقع الامر انّ الحرب ما لبثت ان قامت على ساق . قال زوزيموس في سيرة اوريليانس (١ : ٤٤ — ٥٠) : « انّ السبب الذي تعلّل بهِ اوريليانس لمحاربة زينب انّما كانت غارةً شنّتها على بلاد بيثينية » . وقد مرّ بنا ان زينب لم تكد تستوي على عرش المشرق حتى سعت في الاستيلاء على هذا الاقليم (راجع ص٨٢٤) الّا ان غاليانس قيصر كشف نيّاتها وعاكسها معاكسةً صدّتها عن الظفر بالرغوب وان كانت وقتئذٍ متغلّبةً على الرومان لكنّ سلطانة تدمر لم تبرح تطمع في فتح تلك البلاد لخطارة موقعها في آسية الصغرى

فلمّا منحها الله اكتاف المصريين ولاحظت ان اوريليانس لم يتكر عليها حتّ نصرتها زاد قلبها مرضاً في التملك على بيثينية فامرت جيوشها ان يستمروا عليها فغلبوا وقهروا اهلها واستقرّوا البلاد حتى اقصى انحائها فبلغوا خالقيدون بازاء بيزانتيوم (اي القسطنطينية) وضربوا عليها الحصار . الّا ان سكّان هذا الاقليم كانوا يكرهون التدمريين فلم يلبثوا الّا يسيرًا حتى خرجوا عليهم ودعوا اوريليانس لنصرتهم لكنّ القيصر لم يتهيأ لهُ ان يجاوب للحال الى طلبتهم اذ لم يكن قد انتهى من امر البرابرة . وفي تلك الاثناء مات وَهْبلات في تدمر (٢ فاجلست زينب ابنها قيمَ الله وخيران على منصّة التياصرة ومحت صورة اوريليانس عن نقود التدمريين

فلمّا علم اوريليانس جراءة هذه المرأة تفرّغ من حرب القوط باسرع مدّة وبادر الى

---

١) V : n° 95, Zozim. : I, 58

٢) راجع W. : p. 605 . اعلم ان اخبار الاقدمين والدلائل التاريخية المستنتجة حديثًا من الكتابات والنقود تختلف بعض الاختلاف في رواية هذه الوقائع . فاخذنا عن كل هذه المصادر ما رايناه اقرب الى الصواب . واما وَهْبلات الذي ملك على الامن في اواخر امر زينب فمن المتبادر انهُ لم يكن من ابناء ملكة تدمر

بيزانتيوم فعبر مضيق البسفور وحمى التدمريين في بيثينية (في اواخر السنة ٢٧١ او اوائل السنة التالية) فطردهم عنها ثم واصل فتوحاته فتغلب على غلاطية وقفادوقية حتى بلغ مدينة انقرة وكان يريد حصارها . الا ان سكانها تهيبوا سطوته وفتحوا له ابواب مدينتهم طالبين منه الامان . وكل ذلك جرى في مدة وشيكة حتى ان زينب لم يسعها ان ترسل جيوشها الى مقاومة الرومان قبل توغلهم في السورية الشمالية

وقبل ذلك بيسير كان زبدا قائد زينب قد هرع الى مصر ليمد الى فيرموس واليها من قبل ملكة تدمر يد المساعدة ويشد أزره بعشير العساكر الرومانية التي وجهها اوريليانس تحت امر پروبس . فنشب قتال شديد بين الفريقين ارتكت فيه جيوش زبدا ان تستظهر على الاعداء . الا ان پروبس استمال جماعة من المصريين فآزروه على التدمريين وكسروهم كسرة مؤلمة . فولوا مدبرين تاركين مصر الى الابد (٢٧١)

فلما وصل زبدا مع بقايا عسكره الى تدمر كانت زينب تتأهب لمحاربة اوريليانس وقد ضمت اليها اطرافها من جميع انحاء ممالكها وجعلتها تحت امر زبدا وزباي ثم قسمتها ثلاثة اقسام وجهتها كلها في وجه الرومان اولها بطريق حلب والثاني بطريق حمص والثالث بطريق القريتين . وصارت هي تقدمهم ممتطية جوادها لابسة بزة الحرب وعلى رأسها البيضة

وكان اوريليانس قد انتهى من فتح قفادوقية وجعل يحاصر مدينة طيانة واهلها من آمن رعايا زينب واثبتهم في خدمتها . فدافعوا عن ارطانهم مدافعة الابطال . ولولا خيانة رجل يدعى هراكليون لما تغلب عليهم القيصر ولعله كان تباطأ الى ان تفجأه زينب بغتة . الا ان الله لم يسمح بمثل ذلك فتح الرومان مدينة طيانة ثم توغلوا في جبال تورس يحاربون من يناوئهم ويقهرون من ناواهم ويفتحون مدينة بعد مدينة حتى قربوا من انطاكية (١

وكانت هذه المدينة في ذلك الزمان من ابهى مدن الشرق يتخللها نهر العاصي وتحدق

١) قال بعض المؤرخين ان المكان الذي احتله اسمه عم (الخ .. Imma او Immos) وهو على طريق حلب . الا ان في الامر نظرا . فلما كان هذا الاسم ورد على صورة تشبه صورة اسم حمص فالاحرى عندنا ان هؤلاء المؤرخين ارادوا بذلك الاشارة الى حمص التي جرت فيها حرب عوان بعد القتال الذي التحم في جوار انطاكية . (راجع Mommsen V, p. 440; ZDMG, *Nöldeke* : 1885, p. 339)

بها الرياض والحدائق والغابات. وكان شابور لمَّا اغار عليها طمس محاسنها لكنها لم تلبث ان تنتعش بعد خروجه على عهد امراء تدمر فدان لهم اهلها دون الرومان. الَّا ان حسن التفات زينب الى المبتدع بولس السميساطيّ أثار فيهم البغض للتدمريين وكانوا منذ شمّرت الحرب عن ساقها يتمنّون للرومان النصرة على عساكر زينب

١٨

فلمَّا قربت ملكة تدمر من انطاكية ورأت قدوم اوريليانس اليها امرت قوّادها ان يناشبوه القتال وهي لا تشكّ في غلبتها عليه. ففي الوقيعة الاولى هجم فرسان تدمر على الكتائب الرومانية وشتتوا شملهم. الَّا ان التدمريين كانت تنوء بهم عدّتهم لثقلها وكانت خيولهم ابطأ جريًا من فرسان اوريليانس الذين جمعهم في الجزائر. وكان القيصر رجلًا ذا حيل ومكايد فامر مقاتلته ان يستطردوا للعدوّ فولّوا مدبرين. وتخال تبعهم زبّاي بفرسانه لا يفكّر انهُ عاجز عن ادراكهم. فاغتنم اوريليانس هذه الفرصة والَّب كتائبهُ وكبس أرجلة التدمريين وهزمهم. فلمَّا رأى زبّاي ما وقع باصحابه علم خطأهُ فندم على فعلهِ ولكن فات حين ندم فانّ فرسانهُ كانوا قد ابتعدوا عن المعركة ابتعادًا مفرطًا قد اصبحت مطاياهم رازحةً فنجى الرومانُ التدمريين ثانيةً وكسروهم كسرةً شنيعةً

فجمعت زينب شتات عسكرها والتجأت الى انطاكية مسرعةً. وعند دخول التدمريين تخوّف زبّاي سوء تصرّف الانطاكيين اذا وقفوا على حقيقة الامر فاعلن كذبًا انهُ اسر القيصر وانهُ سيحملهُ الى تدمر مكبَّلًا. وفي نفس هذا اليوم خرجت زينب بجيوشها من انطاكية زاحفة الى حمص. وفي الغد تلَّك اوريليانس على انطاكية واعطى الاهالي الامان (١)

وبينما كانت زينب تستوفض الى حمص وهي تنادي فرسان العرب لمساعدتها (٢ شدَّ

---

١) زوزيموس ١ : ٥١ وفوبيسكوس ٣٥. و Addison : II p. 268 و Chesney II p. 427 واخبر قوم من المؤرخين ان التدمريين لم يغادروا حالًا جوار انطاكية بل كمنوا في غابة تُدعى دَفْنه جنوبي المدينة وان الرومان تيموم اليها فطردوهم منها بعد قتال عنيف (راجع Mommsen : V, p. 439)

٢) قد قدمنا (ص ٨٢٤) ان زينب كانت قد استصرخت شمّان بعض قبائل العرب. فلذا لم يندب اليها في هذه الحرب سوى القبائل الثلثة في جهات الجزيرة والعراق. فلما رأى الاخرون

في اثرها القيصر وفتح في طريقه عدّة مدن على ضفّة نهر العاصي منها أفامية ولاريسة (قلعة سيجر) ورستان . فلمّا بلغ الى جوار حمص وجد عساكر زينب صفوفاً كثيفة متحفّزين لقتال ثانٍ وهم نحو ٧٠,٠٠٠ نفر من الفرسان والرجّالة والقوّاسة . وكانت الساحة التي اختارتها ملكة تدمر للقتال مفازةً عريضة شمالي المدينة تناسب لحركات جندها لاسيّما الفرسان وهم معظم جيشها . واماً جنود اوريليانس فكان عددهم اقلّ من التدمريين الّا انهم رجال مدرّبون على فنون الحرب يقتحمون المخاطر غير مبالين بالهلكة (١

فتقدّمت زينب على راس خيلها وأغرتهم على فرسان اوريليانس فوثبوا عليهم بشدّة عظيمة فولّى الرومان مُدبرين وتبعهم اصحاب زينب يُثخنون فيهم الجراح . فلما راى اوريليانس ما نزل بقومه ضاقت الارض في اعينه بما رحبت وجعل يتضرع الى آلهته لاسيّما الى صنم حمص وهو عبارة عن حجارة سوداء مختصّة بعبادة الشمس . وفي غضون ذلك تقدّمت زينب الى جنودها بان يحدقوا بالاعداء لئلاّ ينفلت منهم احد . الّا ان الحركة التي امرت بها لم تنجح لان فرسان اوريليانس كانوا تناءوا عن مأزق الحرب عند قرارهم فلم يتهيّأ لجيوش زينب ان يحصروهم في حلقتهم . لا بل أفضى الامر الى اعتزال فرسان تدمر عن الرجّالة . فكان ذلك سبب هزيمة التدمريين . فانّ اوريليانس بادر الى تغيير نقطة القتال فهجم على ارجلة زينب ومزّقهم كلّ ممزّق . وعند ذلك كرّ زبّاي راجعاً لينقذ اصحابه من المكروه الّا ان الحظّ اسعد الرومان فاجتمعوا صفوفاً لاصقةً وحملوا على مقانب التدمريين فجرى حينئذٍ بين الطرفين من القتل الذريع والذبح الهائل ما افضى الى تشتّة نصرة الرومان . فنال زينب الذُعر والهلع لمّا شاهدت السهل مفروشاً بجثث انصارها فتركت حمص على جناح السرعة قاصدةً تدمر وهي مصمّمة ان تدافع عن حاضرتها مدافعة الابطال (٢٧٢) وتبذل دونها النفس والنفيس (٢

ان نير الرومان يكون اثقل عليهم من نير زينب لبّوا الى طلبها فاخذوا يناوشون الرومان افراداً ودون نظام كعادة اهل الوبر في كل ابن وآن

١) قال ڤوپيسكوس (ف٢٢) : انهُ وُجد في جملة العساكر الرومانية فئات من الدّلماط واهل ميسية وپانونية وريتية والعراق والشام وفلسطين وفينيقية وغيرهم ولم يكن لهم من الاسلحة سوى عصي وهراوى ضخمة (دبابيس) » . والظاهر ان المؤرخ يريد باهل الشام وفلسطين وفينيقية جماعة من الخوارج واللصوص الذين انتهزوا الفرصة للسلب والنهب فتحزبوا للرومان دون التدمريين

٢) ڤوپيسكوس : بروبس ٩

وبينما كانت تجتاب البراري دخل اوريليانس مدينة حمص فاستقبلهُ الاهالي استقبالاً فائقاً كأنهم تبرَّموا بتدبير تلك السلطانة التي لم تألُ جهدها لترخي خناقهم وتقطع رِبقة الرومان عن اعناقهم

وجرى في سائر انحاء سورية ما جرى في حمص. فان پروبس بعد ان اختطف البلاد المصرية لم يلبث ان استولى ايضاً على فلسطين وفينيقية دون صعوبة ولا مقاومة من قِبَل الاهلين. وقبض اوريليانس على جميع الاموال والنفائس والاسلحة التي تركها التدمريُّون في حمص وبالخصوص على تلك النَّجلة البهية التي اعدَّتها زينب لاولادها يوم يتسنَّى لها ان تدخل بهم ظافرةً رومة عاصمة الدنيا. ثم صار يقدِّم فروض عبادته الباطلة الى الحجارة السوداء وينسب اليها ظفرهُ ويشكرها على صنيعها ثم وعد ببناء هيكل عظيم للشمس عند رجوعه الى عاصمته. واجمعَ المؤرِّخون القولَ بان القيصر فُتِن بهذه المظاهر الوثنية قلوب من كانوا عَبَدةً للاصنام بين اهل حمص(١)

ومع ذلك لم يُطِل اوريليانس الاقامة في تلك المدينة. فكأني به لم يحسب نفسهُ في الهناء والرومانَ في الأمن والسلام والآلهةَ في رضًى ما دامت زينب متحصِّنة في حاضرتها. فازدحف الى تدمر يريد فتحها باسرع مدَّةً. قال المؤرخ مومسن الشهير: « ان السفر الى تدمر كان للرومان اصعب من مقاتلة زينب » يعني بهِ ان اجتياز جيوش القيصر بادية الشام في فصل تلظَّى وَهْجُ حرارته بين قبائل العرب المتاصِّصة كان من الامور التي تقتضي بأساً وثبوت جنان. فلما وصلوا بازاء تدمر وقد اضنكهم التعب ولفحتهم الشمس فتفرَّسوا في قلاع تلك المدينة الحصينة واسوارها وأبراجها تألهم بروزيتها الدهش والحيرة فعرفوا انَّها اعزّ من الأباق العقوق. وكانت زينب بعد هزيمتها زادت المدينة حصانةً فنصبت المجانيق فوق الاسوار وهيأت جميع الآلات المعدَّة لرمي المزاريق ورشق السهام النارية النفطية. فباشر الرومان حصار تدمر بالفين بالجدّ. واول ما سعوا وراءهُ تقويض الاسوار بالحفر وفتح اللغوم من تحتها الَّا ان ارض هذه الانحاء كانت سهلة التفتت فاوشك الصنَّاع ان يهلكوا تحت ردمها وذهبت مساعيهم ادراج الرياح

وفي اثناء ذلك لم ينفك التدمريون يقذفون الاحجار ويرشقون السهام وانواع الرجوم

---

١) ڤوپيسكوس: (اوريليانس) ٢٥ وزوزيموس ١: ٥٠ وغيرهما

فيتلفون الاعداء دون ان يلحقهم منهم ادنى مضرّة. وعلى ذلك كتب اوريليانس الى مجلس الشيوخ: «... قد يستضحك مني بعض الناس على محاربتي لامرأة... فاعلموا ان زينب اذا قاتلت كانت أرجلَ من الرجال...» (١. فلما رأى القيصر ان لا فائدة من الاحتياط بالمدينة وان جنوده يهلكون باطلًا واحدًا بعد آخر فكّر في وجه استعطاف خاطر زينب ودعائها الى تسليم حاضرتها له. فبعث اليها برسالة قال فيها ما تعريبهُ:

« من القيصر اوريليانس ملك العالَم الروماني وسلطان المشرق الى زينب واصحابها سلامٌ:

« قد وجب عليكِ ان تفعلي من تلقاء نفسكِ ما ادعوكِ اليهِ بهذه الرسالة. وهو ان تخضعي للرومان وتستسلمي لي. فعلى هذا الشرط ليس ألّا تنالين سلامتكِ وتستحقين عفوكِ. فان فعلتِ يسمح لكِ مجمع الشيوخ الاعلى ان تعيشي انتِ وعيالكِ في مدينة يعينونها لكِ. فسلّمي اذن لبيت مالنا كلّ ما لديكِ من الجواهر والذهب والفضّة والنسج والخيول والجمال. وانا اتعهّد لكِ انّي سأحفظ للتدمريين جميع حقوقهم »

فاجابت زينب: « من زينب سلطانة المشرق الى اوريليانس اغسطوس:

« انّ ما التمستَهُ مني بكتابكَ لم يتجاسر احدٌ قبلك ان يطلبه مني برسالة. أغشيتَ ان الغلبة بالشجاعة لا يتسويد الصفحات. انك تريد ان استسلم لك. أتجهل ان كليوپترة قد آثرت الموت على حياة سبقها عار الدَّبرة (٢. فها اني منتظرةٌ عضد الفرس والارمن والعرب لفلّ شباتك وكسر شوكتك. وان كان لصوص الشام قد تغلّبوا عليك وهم منفردون فماذا يكون حالُك اذا اجتمعت بجلفاتي على مقاتلتك. فلا شكّ انك تذلّ وتخضع لي فتجرّد نفسكَ عن كبريائها التي حملتك على طلب المحال كانك مظفّر منصور في كل اين وآن » (٣.

(النهاية في العدد القادم)

---

١) ڤوپيسكوس: ٢٧

٢) لدلّ شهرة هذه الرسالة وما ذُكِرَ فيها عن موت كليوپترة هو الذي حمل العرب وغيرهم من المؤرخين على قولهم بان زينب في آخر امرها ابتلت سمًّا كالملكة التي كانت تفتخر بنسبها اليها

٣) ڤوپيسكوس: اوريليانس ٣٦ و ٣٧